موسيقى الكان كان

هو شعر عامي شاع بين البغداديين في عصور متأخرة، بدأ فيها بعض الناظمين يتحللون من بعض قواعد الإعراب، وبعض قيود القافية. ولم ينظموا فيه سوى الحكايات، والخرافات، والمراجعات، فكأن قائله يحكي ما كان وكان. وقد ارتقى هذا الشعر قليلا حتى ظهر الشيخ جمال الدين بن الجوزي، والشيخ شمس الدين محمد الواعظ، والشيخ شمس الدين بن الكوفي الواعظ، فنظموا فيه الزهديات، والأمثال، والحكم، والمواعظ، وذلك في القرنين السادس والسابع الهجريين.

وسمي بذلك، لأن رواته ومنشديه كانوا يبدأونه بعبارة "كان وكان" للدلالة على منحاه الأسطوري ويبدو أن هذه العبارة كان ينطق بها "كن وكان" لتنسجم مع ما قالوه على وزنه.

أما هذا الوزن فواحد بقافية واحدة، يتألف كل بيت فيه من شطرين، ولكن الشطر الأول منه أطول من الشطر الثاني، ولا تكون قافيته إلا مردفة، أي تتضمن حرف علة قبل حرف الروي.

ومن أمثلته قول القائل:

يا قاسِي القَلْبِ ما لكْ تسْمَعِ ما عِنْدَكْ خَبَرْ ومن حرارة وَعْظي قدْ لانَتِ الأحْـــجارْ
أفْنيت مالَك وحالَك في كلّ ما لا ينْفَعَـــك ليْتَك على ذي الحال تقْلع عَنْ الإصْرار

وفي "العاطل الحالي والمرخص الغالي" لصفيّ الدِّين الحلّي، عدَّة قصائد من هذا اللون الشعري، نقتطف منها القصيدة التالية:

قَدْ خَبْرُوني وقالوا: عَيْنَي حَبِـــيبَك تُوجِـــعوا قُلْتُ: الضَّرِيبَهْ تُؤثِّر في الصّارمِ الصَّمصامْ
قالوا: سهر مِنْ المها قلت: الطبيعة مكـــافيه يا طالما خلّانـــــي في الليل لـــــيسَ أنامْ
لي حِبّ قد بعْت ديني من لاحْ وَجْهُو كالصَّنَمْ واعْذَرْتُ مَنْ كان قَبْلِي أو يعبد الأصْنَـــامْ
اليوم عِنْدي ساعَة إذا حَضَرْ في مَجْلســـــي وإن تغيَّب عنِّي فاليـــــوم عنـــــدي عامْ
وَقطْ ما جا عِنْدِي إلَّا شَرَبْ بالمكْحـــــــلهْ وعند غيري يَشْرَبْ بالطَّاسْ أو بالجـــــامْ
حُلفْت وفْقِي وشرطي قدّرت لكْ سبَّبت لـــــي رَضِيْتْ أنا ذي القِسْمِة تبـــارَكِ القسَّـــامْ
أَبْصِرْ مِلاح المدينة، وغير وجْهَك ما اشْتِهـي من كان يُحِبْ المُخَيَّش ما يعجبو الشَّمَّـام
في العام أبصرك مرَّة ما ارجع أراك إلى سنة كنّك براةِ النّصارى أو حَجّة الإســـــلام
تحْرُدْ مِنْ اقْوالْ غَيْرِي تجي تخاصِمْني أنـــا من يحرجُو الحمـــيمى يخاصـــم القوّام
كلّمْت غَيْرَك كِلْمة هَيَّمْتني مِنْ مَوْطِنـــــي عَسَى لـــو انّي بسْتُو نِفيَّتني للـــــشَّامْ
إنْ كانْ تغار علينـــا لِمَ تْكَلَّمْ غيـــــــرنَا كيف هو عـــليك مُحَلَّل وهو عَليَّ حَرَام؟